حركة « تحرير المرأة » في مصر

البذرة الأولى :

(إن المتتبع لتاريخ مايسمى بحركة « تحرير المرأة » في مصر ، يجد أن جذور هذه الحركة تمتد إلى عهد محمد علي باشا والي مصر ، حينما بعث المبعوثين إلى فرنسا ليتلقوا هناك الخبرات والمهارات الفنية ثم يحملوها معهم إلى مصر ، لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل رجع المبعوثون من فرنسا حاملين تيارات فكرية مادية دخيلة على دينهم ، بعد أن بهرتهم رهبانية العلم المادي ، وتعبدهم سلطان العقل ، لقد عاد أولئك المبعوثون يحتلون مراكز الصدارة والتوجيه في مختلف الميادين السياسية والتربوية والفكرية)[١٤] .

دور الشيخ « رفاعة الطهطاوي » (١٨٠١ ــ ١٨٧٣م) :

[وكان من أعضاء الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين الشيخ « رفاعة رافع الطهطاوي » ، الذي أقام في باريس خمس سنوات « من ١٨٢٦ ــ ١٨٣١م» تقريباً ، وكان قد رافق البعثة المصرية كواعظ وإمام لها ، وما إن عاد إلى مصر حتى بدأ يبذر البذور الأولى لكثير من الدعوات الدخيلة على البيئة المصرية المسلمة ، تلك الدعوات التي حمل جراثيمها معه من فرنسا ، مثل الدعوة إلى فكرة « الوطنية القومية » بمفهومها المادي المحدود المنابذ للرابطة الإسلامية بين المسلمين مهما تباعدت أوطانهم ، وكذا استوحى من واقع الحياة الفرنسية أفكاراً عن المرأة هي أبعد

---

(١٠٤) انظر « الإسلام والحضارة الغربية » للدكتور « محمد محمد حسين » رحمه الله ص(١٧ ــ ١٨) .

ماتكون عن شرائع الإسلام وآدابه ، وقد تجلى ذلك في مواقفه الجريئة من قضايا تعليم الفتاة ، وتعدد الزوجات ، وتحديد الطلاق ، واختلاط الجنسين ، حيث ادَّعى في كتابه « تخليص الإبريز في تلخيص باريز »(١٥) (ص٣٠٥) أن (السفور والاختلاط بين الجنسين ليس داعياً إلى الفساد) اهـ ، وذلك ليبرر دعوته إلى (الاقتداء بالفرنسيين حتى في إنشاء المسارح والمراقص) ، مدعياً أن (الرقص على الطريقة الأوربية ليس من الفسق في شيء ، بل هو أناقة ، وفتوة) وأنه لايخرج عن قوانين الحياء ، ودعا المرأة إلى التعلم حتى تتمكن من تعاطي الأشغال والأعمال التي يتعاطاها الرجال](١٦) .

وهكذا كان « رفاعة الطهطاوي » أول من أثار قضية (تحرير المرأة) في مصر في القرن التاسع عشر الميلادي ، فسنَّ بذلك أسوأ السنن ، وبذر هذه الأفكار الدخيلة في التربية الإسلامية ، ولم يدرك أنه حين ينقل هذه الآراء خاصة مايتعلق منها بمدلول كلمة « الحرية » إلى المجتمع الإسلامي يمكن أن ينتهي إلى نفس النتيجة التي انتهت إليها أوربة وهي : نبذ الدين ، وتسفيه رجاله ، والخروج على حدوده ، لم يدرك ذلك ، ولم يلاحظ إلا الجانب البرَّاق الذي يأخذ نظر المحروم من الحرية ، حين تمارس في مختلف صورها وألوانها ، وفي أوسع حدودها ، فكان كالجائع المحروم الذي بهرته مائدة حافلة بألوان الأطعمة ، فيها مايلائمه ، وما لايلائمه ، ولكنه

---

(١٥) (وقد كتب الطهطاوي هذا الكتاب أثناء إقامته في فرنسا ، وعرضه على أستاذه (جومار) قبل أن ينشره بعد عودته) اهـ . من « السابق » ص(١٩ ــ ٢٠) .

(وقد بين لنا هذا الكتاب ــ أي : « تخليص الإبريز » ــ أن صاحبه خلق من جديد في الفترة التي قضاها في فرنسا ، يأنس إلى علمائها ، ويأنسون إليه ، فإذا عاد إلى القاهرة أشرف على حركة الترجمة ، وعُيِّن رئيساً لتحرير الوقائع المصرية ، وكتب المقالات ، وألف الكتب وترجم القوانين ، وعُيِّن ناظراً لمدرسة الألسن) اهـ من « تطور النهضة النسائية في مصر » « لإبراهيم عبده » ، و « درية شفيق » ص(٥٣) .

(١٦) « الإسلام والحضارة الغربية » د. محمد محمد حسين ص(٣٦) .

لم ينظر إليها إلا بعين حرمانه ، ولم يرها إلا صورة من النعيم الذي يتوق إليه ، ويشتهيه .

(وكانت دعوة جريئة من « رفاعة » ، لم يجد لها معارضاً خاصة وأن حاكم البلاد ، قد بارك دعوته ، وبارك أول كتاب وضعه « رفاعة » وهو « تخليص الإبريز في تلخيص باريز » يبرز فيه تقدم الغرب ، ويُحَسِّن لمواطنيه الانتفاع بتقدمه ، وأكثر من هذا فقد قرأ « محمد علي » الكتاب قبل نشره ــ بناء على تزكية له من الشيخ « حسن العطار » شيخ الأزهر ــ فأمر بطبعه ، وأصدر أمره بقراءته في قصوره ، وتوزيعه على الدواوين ، والمواظبة على تلاوته ، والانتفاع به في المدارس المصرية ، بل إنه أمر بعد ذلك بترجمته إلى التركية)[١٧] اهـ .

لقد كان « رفاعة » أول من وضع الأفكار النظرية موضع التنفيذ ، وأول من أنتج عملاً فكرياً يمهد لخطة اجتماعية عملية ، وتجلى ذلك في مؤلفيه (تخليص الإبريز) و (المرشد الأمين) الذي ألفه بناءً على أمر الخديوي « إسماعيل » وذلك عام (١٨٧٢) قبل افتتاح أول مدرسة للبنات ترعاها الحكومة بعام واحد ، وقبل موت « رفاعة » بأعوام قليلة ، ولما كان الخديوي « إسماعيل » يقود ــ في بداية تلك المرحلة ــ حركة التحديث في كل الميادين السياسية والفكرية والاجتماعية ، فقد حاول بعد ذلك أن يقنع أهل الرأي بتأليف كتاب في الحقوق والعقوبات يطبقه في المحاكم ، بحيث يكون سهل العبارة ، مرتب المسائل على نحو ترتيب القوانين الأوربية ، ولكن رفض أهل الرأي من مشايخ الأزهر هذه الدعوة ، فطلب الخديوي من الشيخ « رفاعة » إقناعهم بقبول ذلك ، ولكنه اعتذر عن ذلك على الوجه الذي وصفه الشيخ « رشيد رضا » في كتاب تاريخ الإمام « محمد عبده » على الوجه التالي :

---

(١٧) « المؤامرة على المرأة المسلمة » د . السيد أحمد فرج ص(٣٨) .

قال الشيخ « رشيد » : (حدثني « على باشا رفاعة بن رفاعة بك الطهطاوي » قال : إن « إسماعيل باشا » الخديوي لما ضاق بالمشايخ ذرعاً ، استحضر والده « رفاعة بك » ، وعهد إليه أن يجتهد في إقناع شيخ الأزهر وغيره من كبار الشيوخ بإجابة هذا الطلب ، وقال له : « إنك منهم ، ونشأت معهم ، وأنت أقدر على إقناعهم ، فأخبرهم أن أوربا تضطرب إذا هم لم يستجيبوا إلى الحكم بشريعة « نابليون » فأجابه بقوله : « إنني يامولاي قد شخت ، ولم يطعن أحد في ديني ، فلا تعرضني لتكفير مشايخ الأزهر إياي في آخر حياتي ، وأقلني من هذا الأمر ، فأقاله)[١٨] .

وكان أن انزوى « الطهطاوي » ، بعيداً عن مكان الصدارة ، وانتأى بعيداً ، ليحتل مكانه الشيخ « محمد عبده » الذي كان في ذلك الوقت في شرخ الشباب ، يحدوه جرأة الشباب وإقدامه ، وهنا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل « تحرير المرأة » .

مرقص فهمي والقذيفة الأولى :

وفي سنة (١٨٩٤) ، أي بعد الاحتلال الإنكليزي لمصر بحوالي اثنتي عشرة سنة ، ظهر أول كتاب في مصر أصدره صليبي حقود من أولياء (كرومر) الملقب باللورد ، أظهره محتمياً بالنفوذ البريطاني الذي أمَّن له الطريق نحو طعن الإسلام وأهله ، ذلكم هو (مرقص فهمي) المحامي ، وكتابه هو (المرأة في الشرق) ، دعا فيه صراحة، وللمرة الأولى في تاريخ المرأة المسلمة إلى تحقيق أهداف خمسة محددة وهي :

أولاً : القضاء على الحجاب الإسلامي .

---

(١٨) « تاريخ الإمام محمد عبده » للشيخ « محمد رشيد رضا » (٦٢٠/١ ــ ٦٢١) .

ثانياً : إباحة اختلاط المرأة المسلمة بالأجانب عنها .

ثالثا : تقييد الطلاق ، وإيجاب وقوعه أمام القاضي .

رابعاً : منع الزواج بأكثر من واحدة .

خامساً : إباحة الزواج بين المسلمات والأقباط .

وقد أحدث الكتاب ضجة عنيفة ، ولم يلبث المسلمون حين صدموا به حتى انطلقت في غمرات هذه الضجة قذيفة أخرى تفجرت في الوسط الإسلامي :

« الدوق داركير » و « المصريون » :

فقد صدر كتاب ألفه (الدوق داركير)[١٩] باسم (المصريون) ، حمل فيه على نساء مصر ، وهاجم المصريين ، وتعدى على الإسلام ، ونال من الحجاب الإسلامي ، وقرار المرأة المسلمة في البيت ، واقتصار وظيفتها على تربية النشء ، ورعاية الزوج ، وقد هاجم (المثقفين) المصريين بصفة خاصة لسكوتهم ، وعدم تمردهم على هذه الأوضاع .

(وقد بدأ الاستعمار الإنكليزي إثر هذه الضجة يبحث عن وسيلة لشد أزر « مرقص فهمي » ، فلجأ إلى الأميرة (نازلي فاضل)[٢٠] ليستعجلها على عمل شيء يساند « مرقص فهمي » من خلال صالونها)[٢١] .

---

(١٩) وكان داركير قد زار مصر ثلاث مرات سائحاً عابراً في خريف عام (١٨٩٣م) .

(٢٠) وهي ابنة الأمير « مصطفى فاضل » باشا نجل « إبراهيم » باشا ابن « محمد علي » باشا الكبير ، كان والدها « مصطفى فاضل » يعتبر نفسه أحق بعرش مصر من الخديوي إسماعيل ، ومن هنا كانت الأميرة نازلي تعلن الحرب على الخديوي عباس) اهـ من جريدة المساء ، الخميس (٤ أغسطس ١٩٨٣م) من مقالة (هل انتحر محرر المرأة بسبب امرأة ؟) للصحافي « مصطفى أمين » .

(٢١) « الحركات النسائية في الشرق » لمحمد فهمي عبد الوهاب ص(١٣ ــ ١٤) طبعة دار الاعتصام .

الجـــــــذور[22]

كانت دعوة « تحرير المرأة » جزءاً من منهج كلي شمل كافة اتجاهات الحياة في المجتمع المصري ، وتعود خيوطه إلى مدرسة الشيخ « محمد عبده » تلميذ « جمال الدين الأفغاني » أو إن شئت « المتأفغن »[23] ، وقد سارا على الدرب الذي رسمه الطهطاوي ، وزاد الأفغاني نشاطه المريب ، وعلاقاته بالمحافل الماسونية ، وتبنيه لمباديء الثورة الفرنسية « الماسونية »[*] .

ومع وجود بعض الجوانب المشرقة في منهاج « محمد عبده » إلا أننا لانستطيع أن نتجاهل نشاطه حيث كان له أخطر الأثر في عملية « التغريب » وتقريب الأمة الإسلامية نحو القيم الغربية ، مما جعل اللورد كرومر يشيد بدعوته وبتلامذته ، ويعلق عليهم أمله في « تغريب » المجتمع المصري ، ويذكر أنهم لذلك يستحقون (أن يعاونوا بكل ماهو مستطاع من عطف الأوربي وتشجيعه) اهـ .

ويكفي للتدليل على خطر هذه المدرسة أن نقرر دور تلاميذها في إفساد الحياة في مصر :

فهذا (لطفي السيد) يحيي التاريخ الفرعوني ، والنعرة الوطنية الإقليمية ، ويرعى الدعوة إلى « الحرية » بمفهومها الغربي الدخيل على الأمة الإسلامية .

---

(٢٢) انظر « الإسلام والحضارة الغربية » ص(٤١ ــ ١٠٠) ، و « قاسم أمين » للدكتور « ماهر حسن فهمي » ص (١٩ ــ ٢٠) .

(٢٣) هناك خلاف منتشر في حقيقة نسب الأفغاني هل هو حقاً أفغاني أم أنه شيعي إيراني ، انظر (المجلة) العدد ٣/٢٣٣أغسطس ١٩٨٤م/ ٧ ذو القعدة ١٤٠٤هـ ــ ص(٦١ ــ ٦٣) ، وانظر أيضاً (الإسلام والحضارة الغربية) ص(٦١ ــ ٦٣) .

(*) انظر : (دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام) للأستاذ مصطفى فوزي بن عبد اللطيف غزال ، نشر (دار طيبة) ــ الرياض ، وهي دارسة كشفت كثيراً من جوانب الغموض في سيرته .

وهي كلها مباديء بلغت مداها على يد تلميذ آخر لمحمد عبده هو (سعد زغلول) .

وهذا تلميذه (قاسم أمين) يفسد الحياة الاجتماعية في مصر بدعوته إلى « تحرير المرأة » بالمعنى الذي يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

لقد كان يريد « محمد عبده » أن يقيم سداً في وجه التيار العَلماني اللاديني ليحمي المجتمع الإسلامي من طوفانه ، ولكن الذي حدث هو أن هذا السد أصبح قنطرة للعلمانية ، عبرت عليه إلى العالم الإسلامي ، لتحتل المواقع واحداً تلو الآخر ، ثم جاء فريق من تلاميذ « محمد عبده » وأتباعه فدفعوا نظرياته واتجاهاته إلى أقصى طريق العَلمانية (اللادينية) .

رام نفعاً فضر من غير قصد   ومن البر مايكون عقوقا